الأب ...

قصة بقلم عادل آدم

بعد ان تخرجت من الجامعة ، ونلت شهادة الطب .. عينت في بلدة نائية بالصعيد اسمها « الرمادي » .. وقد جاء هذا التعيين مناسبا لي تماما فقد كنت اعرف ما يقاسيه الفلاحون من المرض، واعرف كذلك اعراض الاطباء عن العمل في الريف واهمالهم المخجل . وكنت في صدر شبابي ، مملوءا بالحماس لعملي وللقسم الذي اديته .. لذلك رحبت بالعمل في هذه القرية البعيدة وراسي مليء بالآلاف من الاراء والمشروعات ، وصدري تموج فيه الامال الكبار .

وكان لوزارة الصحة مستشفى بهذه البلدة يقوم على خدمة فلاحي المنطقة والمناطق المجاورة .. والحقيقة كان المستشفى كاملا من جميع الوجوه ، مزودا باحدث المعدات والآلات .. ولكن وبعد ان انقضت عدة ايام ادركت ان المستشفى الكبير ليست له ادنى فائدة .. فالاهالي لم يكونوا قد إعترفوا بعد بان الطب قد تقدم .. وكانوا يفضلون قطعة من طين النيل يضعونها فوق الجرح على قطعة قطن معقم مغموسة في سائل مطهر .. ومضت الايام وليس لي من عمل سوى الاستلقاء في سريري وبين يدي جريدة او كتاب .

وغاظني هذا الحال ، ولم أتصور ان الاهالي كلهم اصحاء سليمو الاجساد ، فأيقنت ان الفلاحين لا بد يرهبون دخول المستشفى الجديد، او هم غير مقتنعين بأن هؤلاء الافندية ذوي الملابس البيضاء يمكن ان يشفوا المرضى كما يصنع المشايخ واولياء الله ذوو الملابس الملونة المتسخة والعمامات العالية ..

وبمضي الايام تعرفت على كثيرين من الاهالي ، وكان يحزنني ان ارى وجوههم المصفرة وان اسمع سعالهم الحاد ، والمرض ينهش في ابدانهم ، فكنت أنصحهم بأن يقصدوا المستشفى للعلاج .. فلا أجد منهم سوى الاعراض التام .. ثم كلمات فارغة عن امر الله .. والعمر واحد والرب واحد .

كانت امسياتي مملة أقضيها في منزل احد المعارف الكبار الذين يعملون في البلدة كمهندس الري وصاحب الصيدلية الاهلية التي لا تبيع سوى الاسبرين والمسهلات ، او غيرهما من رجال الامن الذين يسمون باسم الحكام .

وذات يوم اتفقت مع أحد الاصدقاء ان نقصد الى دار للسينما في المركز .. وجلست انتظره في غرفتي .. وسمعت صوت عربة حنطور في الطريق ما لبثت ان توقفت .. ولما نظرت من الشباك وجدت صديقي جالسا في العربة ، وهي احدى عربتين هما كل ما في البلدة ، ولاحظت ان سائق العربة غير موجود ، فادركت ان صاحبي ارسله ليستدعيني فخرجت من حجرتي لمقابلته ومررت بالصالة الى الباب الخارجي .. وأخذت انزل السلم .. وفوجئت بسائق العربة واقفا على السلم وجسده متقلص ووجهه منقبض وأسنانه تعض بقسوة على شفته السفلى حتى خلتها ستنقطع .. كان يعاني من آلام هائلة ويداه ، واحدة قابضة على درابزين السلم باستماتة ، والاخرى فوق جنبه الايسر تعصره عصرا .. وعرق غزير ينسال فوق جبهته المتغضنة.

أسرعت اليه واستفسرت عما به .. ففتح عينيه بصعوبة كمن يفتحهما من ضوء شديد .. ثم بذل جهدا كبيرا لكي يبتسم ثم قال : لا شيء .. لا شيء ابدا .. هذا مغص بسيط ، لا بد اني تناولت طعاما فاسدا ..

وغاظني قوله وأدركت انه يريد ان يتهرب من الكشف .. فهززته قائلا :

ـ منذ متى تشعر بهذا الالم ؟

فقال وهو يجالد الالم :

ـ من زمن ... أقصد.. الان .. هذا مغص .

ادركت انه يكذب فجذبته الى حجرة الكشف القريبة .. وامرته بالاستلقاء فوق منضدة الكشف ، بينما كنت اثبت السماعة حول اذني فجلس الرجل فوق المنضدة .. ولكنه بذل محاولة اخيرة فقال :

ـ لا داعي للتعب يا دكتور .. فقد زال الالم .

فصحت به : اخلع ملابسك واستلق .

فرضخ للامر .. وفحصته بعناية كبيرة .. جديرة بالمريض الاول الذي أعالجه في هذه البلدة ، فهالني ما وجدت، كانت كلية الرجل اليسرى في حالة بالغة السوء .

قلت له بلهجة تأكيد تشوبها حدة :

ـ هذا الالم تشعر به من سنوات .. أليس كذلك ؟

فقال وقد خجل من انكاره السابق :

ـ الحق ، إنه نعم .. هذا الالم يعاودني من سنوات .. وكل مرة اقسى من سابقتها .

وتملكني العجب فسألته : ولماذا لم تقصد المستشفى ؟.. بل لماذا لم تذهب للطبيب من لحظة ان شعرت بالالم اول مرة ؟

فقال : ذهبت ..

قالها وكأنه ندم على ذلك ، ثم زفر بيأس ..

ـ وماذا قال لك ؟

ـ أخبرني ان الكلية مريضة .. واحسبه اخبرني ان بها صديدا.

ـ ولماذا لم تواظ العلاج ؟! لماذا اهملت نفسك هذا الاهمال ؟

فاجاب : لقد قال انه يجب اجراء عملية جراحية ، وانه لا يمكن علاجها بالادوية .

فقلت مؤمنا : هذا صحيح .. اذ يجب اجراء جراحة .

وخيل الي ساعتها ان الرجل خائف من الجراحة .. فقلت له دهشا :

ـ هل تخشى جراحة بسيطة ؟.. ثم انت لن تشعر بشيء اطلاقا فسوف تكون تحت تأثير المخدر .

فابتسم وكأنه يحادث طفلا صغيرا وقال :

ـ انت تظنني اخاف من الجراحة .. كلا يا سيدي .. لقد اشتركت في الحرب ، واضطر طبيب الفرقة ان يجري لي عملية الزائدة الدودية بدون مخدر .. وبالرغم من ذلك لم افتح فمي بكلمة تعبر عن المي .. فقط كان العرق ينساب غزيرا على وجهي .

وتملكتني الحيرة ـ ماذا اذن ؟!

فقال وكأنه يشرح مسألة بسيطة :

ـ ان لي اولادا يا سيدي.. اولادا كثيرين، وانا عربجي حنطور لو مت .. مات اولادي جوعا .. حقا انا اتالم .. ولكن لو اجريت لي العملية فربما اموت .. وفي هذه الحالة كيف يعيش اولادي ؟

فصرخت فيه : انت مجنون ، سوف تموت حتى لو تركت نفسك هكذا ..

فقاطني بلهفة : كم سنة يمكن ان اعيش ؟

نظرت اليه ببلاهة ولم افهم لسؤاله معنى .. لم يكن خائفا ..

لم يكن حزينا ، ولكنه كان متلهفا .. وكانه يسال عن صفقة تهمه .

فاجبته : لا ادري بالضبط .. ربما بعد شهور .. ربما عام .

فبدا الجزع على وجهه حتى خلته سيبكي .. وزادت حيرتي ..

قلت له : لماذا تسأل ؟!

مضت فترة قبل ان يجيبني وصوته يتفتت كجبل من الرمل : ان لي ابنا يتعلم في مصر .. في الهندسة ..

وبدا عليه سرور غامر جعل وجهه يبدو لطيفا محببا .. وللمرة الاولى ألقيت على الرجل نظرة فاحصة . كانت ملابسه رثة كملابس اي عربجي حنطور .. وكان وجهه مليئا بالتجاعيد .. وكان العرق ينحدر عى وجهه وسط الاخاديد الكثيرة المنتشرة ، وكان يربط رأسه بمنديل ، حله واخذ يجفف به عرقه فبدا رأسه أشيب وبه شعر خفيف.

واستطرد : انا لا اطلب من الله سوى ان يمهلنا حتى يتخرج ولدي من الجامعة .. وان لم امت حتى هذه اللحظة فسوف آتيك بنفسي لعمل الجراحة .. لاني سأكون مطمئنا على الاولاد ووالدتهم .

وظللت ساهما لفترة وانا اتصور كم يقاسي هذا الاب كي يضمن مستقبل اولاده حتى اغرورقت عيناي رغما عني ، وحاولت بكل الوسائل ان اثنيه عن عزمه وأحوله عن رأيه .. وأفهمه انه سيموت لا محالة لو بقي هكذا .. ولكنه كان كالصخرة في صلابته .. ولم استطع ان اصنع له شيئا فكتبت له بعض الادوية ليصرفها من صيدلية المستشفى، وطلبت منه ان يزورني باستمرار .. كلما تمكن من ذلك ..

وكان من الممكن ان نظل جالسين في اماكننا لفترة اطول لولا ان دخل صديقي كالعاصفة .. ولما وجد السماعة معلقة برقبتي ووجد الرجل فوق منضدة الكشف صاح :

ـ ما الخبر ؟!

لخصت له ما حدث في كلمات قليلة ثم خرجنا وخلفنا الرجل.. وفي السينما انتهزنا فرصة الاستراحة فسألت صديقي عن الرجل .. فقال ان كل ما يعرفه انه رجل فقير كثير الاولاد ، وان له ولدا في الجامعة .. وقال انه يعتقد ان ابنه في السنة الثالثة لانه التحق بالجامعة مع شخص يعرفه في العام نفسه.

وحزنت من اجل الرجل ورثيت له حينما وجدت ان امام ابنه حوالي العامين .. فقد كنا في بداية العام الدراسي وايقنت ان الرجل سيهلك قبل ان يتحقق امله ..

وسألني صديقي : ماله هذا الرجل ؟!

فأخبرته بمرضه وخطورته .. فلم يزد على ان قال « مسكين » .

بعد ذلك صار الرجل يتردد على المستشفى .. وكنت اقضي معه بعض الوقت في الحديث .. وكنت اهتم به واشعر بانني اساهم بنصيب في مشكلته الكبيرة .. وكان يسعده ان يتحدث عن ولده المهندس وعن احتمال تعيينه بالجامعة لتفوقه وحينذاك كان يبدو كطفل مرح سعيد لم يعرف هموم الدنيا قط . « يجب ان تراه يا دكتور » ..

وبعد انتهاء العام الدراسي.. سألته عن ميعاد قدوم ولده .. فاخبرني وهو يتألم بان من الخير ان يبقى في مصر فهو ولد طيب .. انه يعمل في الاجازة ويذاكر للعام القادم .. لو جاء هنا لبقي بدون عمل .. ولكن في مصر العمل متوفر .. ولكنه سيأتي بلا شك في اجازة قصيرة .. انظر يا دكتور لقد ارسل لي هذه .. واراني محفظة نقود جميلة .. فسررت لبر الابن بوالده .. ولما جاء ابنه علي كنت في مهمة خارج البلدة ولو كنت اعرف لحاولت رؤيته ولكنه جاء فجاة وسافر عى الفور .. والحق انني حزنت لذلك فقد كنت فعلا اريد ان اراه .

ولم تتح لي الفرصة الا بعد عام كامل .. كان قد نال شهادته.. وجاء مع والده لرؤيتي .. انتظر هو في الخارج ودخل الرجل مندفعا وهو يبكي من فرط الانفعال .. واخذ يتكلم وصوته يتهدج بطريقة جعلت دموعي تتسابق في النزول وان كنت ابتسم له :

ـ ولدي .. علي يا دكتور ..نجح وخلص .. اصبح مهندسا.. ما رأيك في هذا الاسم ؟ الباشمهندس علي .. هل تصدق ؟؟ كانت امه تريد ان تسميه عبدالله .. على اسم والدها ... ولكني صممت على ان يكون اسمه عليا ... الحمدالله الباشمهندس على اروع كثيرا من الباشمهندس عبدالله .. هل تعرف ؟ لكي يكون الانسان مهندسا يجب ان يون اسمه علي .. اه كانت رحلة طويلة .. الحمدلله .. الان استطيع ان اتنفس بحرية .. انا مستعد الان يا دكتور.. هل تريد ان تجري لي جراحه .. كما تريد .. وبدون بنج ..

واخذ يتحدث الي بكل ما يخطر على باله حتى بدا وكانه يهذي.. ثم توقف فجاة وصاح ـ علي بالخارج .. الا تريد ان تهنئه ؟! ووجدت نفسي اصيح به لماذا تركه بالخارج واسرعنا معه لاستقباله ..

كان في حوالي العشرين او اكثر قيلا .. وسيما يبدو عليه الخجل .. ومكثنا معي قليلا .. ثم هما بالانصراف ليستقبلا المهنئين في المنزل ..

ولكن الرجل عاد بعد ان ترك ابنه بالخارج واصر ان اوقع عليه الكشف ... وترددت ولكنه الح في ذلك ... ولما انتهيت سألني بهدوء

ـ ماذا وجدت يا دكتور ؟ الصراحة .. انت تعرف انني لا اهتم بالموت ...

واغرورقت عيناه وهو يقول :

ـ كنت اريد ان ارى كيف يسعد اخوته الصغار وكيف يأتي لهم بالخير ...

ولما عاود السؤال عن نتيجة الكشف .. تهربت من الرد .. كانت نتيجة الاشعة الاخيرة تقول ان كليته اصبحت كفربال متآكل وطلبت منه مهلة حتى اقوم بتحليل ادق.. غير انه فهم وقال بأسى .

انك لم تفعل ذلك من قبل ..

وبدا على وجهه الالم وهو يكمل :

ـ كنت اطمع ان ..

وتوقف فجاة وهو يتمتم :

ـ لا .. لا.. الحمدلله .. اشكرك يا رب !

ثم ودعني ، وانصرف متثاقلا بعد ان وعدته باللحاق به لكي اشرب الشربات .. والحق انني كنت اعجب .. كيف عاش الرجل للآن؟.. وايقنت ان شيئا خارقا جعله يعيش حتى هذه اللحظة ... واطللت من الشباك فوجدت الرجل يتحامل على نفسه .. ومشاعره موزعة بين الفرحة الشديدة والحزن ..

واستند على كتف ولده حتى وصلا الى العربة ... وكان الرجل قد ساءت حالته .. وبقيت مكاني ... وحمله ابنه ووضعه في مقعد العربة وانطلقا ..

بعد ذلك بحوالي عشرة ايام او اكثر ... جاء لزيارتي... كان متهدما تماما .. وكالمرة السابقة ترك ابنه بالخارج .. وبقي بعض الوقت .. ثم استدعى ولده فسلم علي وانصرف .. نظرت من الشباك كالمرة السابقة .. لم يستطع الرجل مواصلة السير، فحمله ولده ووضعه داخل العربة .. واطمأن على جلسته ثم اسرع فقفز الى مقعد السائق وجذب اللجام ، فتحرك الحصان بعد ان القى نظرة متسائلة على القائد الجديد ..

القاهرة — عادل آدم

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون : ٢٢٢٩٢١